النفير في منطقة الكرمك

عبد الغفار محمد أحمد

« النفير (ف) القوم الذين ينفرون معك أو يتنافرون فى القتال • (س) يقولون عندنا نفير : أى عمل يشترك الجميع فى أدائه كبناء أو غيره » •

د • عون الشريف قاسم « قاموس اللهجة العامية فى السودان» ١٩٧٢ ص ٧٨٣

والنفير فى لهجتنا العامية وفى اللغة العربية الفصحى يدل على جماعية العمل الذى يطلق عليه • ويمكننا أن نستعمل لفظ العمل الجماعى ليعطى نفس المدلول غير أننا يجب أن نضيف هنا أن النفير يتميز بحقيقة أن المشتركين فيه لا يتناولون أجراً بالمعنى الذى نفهمه الآن • قد يقدم صاحب النفير أو الداعى له الأكل والشراب للمشتركين (وغير المشتركين) من الحاضرين بعد انجاز العمل المقصود ولكن لا يمكن أن يعد هذا بمثابة أجر اذ أنه دائما يقل بكثير عن قيمة العمل المنجز اذا ما قيس بما يجنى منه وبالاسعار المتعارف عليها فى المنطقة المعنية •

والعمل الجماعى ــ أى النفير ــ شىء متعارف عليه فى مختلف أنحاء السودان الا أنه قد يختلف فى تنظيمه ونوع وعدد المشتركين فيه حسب عادات وتقاليد أهل المناطق المختلفة التى تمارسه كما أن ما يقدم فيه من مأكل ومشروب يتقيد ، بجانب العادات والتقاليد والمفاهيم الدينية ، بما تسمح الطبيعة باتتاجه وبما اعتاد الناس على استهلاكه ، فالذين يتمسكون بتقاليد الدين الاسلامى والمسيحى يقدمون « العصيدة » أو « البليلة » بجانب الشاى والقهوة للمساهمين فى النفير (١) بينما يقدم البعض ، الذى ليس هو بمسلم أو

١ ــ موقف الدين الاسلامى من المشروبات المسكرة ، مثل المريسة ، واضح ، أما بالنسبة للمسحيين فى منطقة جنوب الفونج والذين يقعون تحت نفوذ ارسالية السودان الداخلية فانهم يمنعون بواسطة لوائح الارسالية القائمة فى منطقتهم من شرب المريسة .

لا يتقيد بكل تعاليم الدين الاسلامى والمسيحى « المريسة » للمساهمين .

والنفير كما أسلفت يسود معظم مناطق السودان ، ونجد أنه يحمل أسماء مختلفة حسب لهجة السكان ، غير أن اللفظ السائد هو كلمة نفير حسب مدلولها فى اللهجة العامية . وقد يفضل بعض السكان فى المناطق التى يتكلم أهلها لغة غير العربية أن يستعملوا لفظة نفير لتقريب المعنى للمتحدث معهم اذا كان من غير أهل منطقتهم ويتحدث اللغة العربية . وقد يكون هناك بعض التمييز فى بعض اللهجات بين العمل الجماعى فى الزرع والبناء وبين التجمع الموسمى لأجل الصيد وجمع بعض الثمار البرية التى يستعملها أهل القرى لطعامهم ونجد مثل هذا التمييز فى لهجة الفور وعند الأدوك فى جنوب الفونج على سبيل المثال(١) ولكن الفور والأدوك أيضا يستعملون لفظة نفير لتدل على العمل الجماعى بأنواعه المختلفة المميزة فى لهجتهم . ومن الألفاظ التى تطلق على العمل الجماعى أورد هنا بعض الأمثلة من الألفاظ التى يستعملها الفور لفظة «تونرى » (٢) . ويقول الأدوك « أتويك » أما البرتا والوطاويط بجنوب الفونج فيستعملون لفظة « أمها » .

بعد هذه المقدمة القصيرة حول كلمة النفير ومدلولها سوف أتقيد بالحديث عن العمل الجماعى الذى يتم فى حالة بناء المساكن أو الزرع والحصاد كما أننى سوف أركز أساسا على الجزء الجنوبى لمنطقة جنوب الفونج والذى يشمل مجموعة الوطاويط والبرتا حول الكرمك ، وسأحاول فى عرض سريع أن أتطرق — بعد مقدمة تاريخية قصيرة حول أصل السكان وعدم الاستقرار الذى كان يسود علاقتهم ببعضهم البعض عبر سنين عديدة — لكيفية النفير والمشتركين فيه والقيود التى تنظم الاشتراك فيه مع ربط هذا الحديث بظروف المنطقة الطبيعية والتنظيم الأسرى لدى هذه المجموعات ، وفى الختام سأحاول أن أجرى مقارنة

---

١ — اعتمدت فى استقاء هذه المعلومات الشفهية على الاستاذين ابراهيم موسى وموسى آدم عبد الجليل والسيد شادرك بيقودنيا .

٢ — يميز الفور بين « تونرى » النفير العادى ويقدم فيه الاكل والشراب و« بمبانى » وهو نفير لعدد كبير من الناس ويذبح فيه الغنم والضأن أو البقر ، وعادة يقام فى حالة زراعة أرض عمدة وعند زراعة مزارع « العمات » ، ولفظ « العمات » عند الفور يعنى أمهات الزوجات ولهذا يختلف عن المدلول الذى يشمله لفظ « العمات » عندما يستخدم فى مناطق ما بين النيلين وشمال السودان.

سريعة بين النفير فى جنـوب الفونج وعندالفور مع محاولة لتوضيح أثر هذا النوع من العمل الجماعى على عوامل التحول الاجتماعى فى هذه المناطق •

المنطقة وسكانها :

تقـع منطقة مجلس ريفى الكرمك الشعبى بين خطى عرض ٣٠ر٩° و ١٥ر١١° وخطى طول ٣٢° و ٥ر٣٣° ويحد المجلس شمالا بمجلس ريفى الروصيرص وجنوبا بمجلس ريفى الناصر وغربا بمجلس ريفى الرنك كما يتاخم الحـدود الأثيوبية من جهة الشرق • يقـدر التقرير السـنوى للمجلس (لعام ١٩٧٢/٧١) سكان المنطقة بحـوالى سـتين ألف نسمة • وتقسـم المنطقة الى سبعة عمـوديات هى عمودية الكيـلى ، اورا ، الادوك . السركـم ، الراقريق ، الجمجم ، والكوما . وأغلبية سـكان المجلس من البرون والراقريـق والأدوك والبرتـا كمـا توجـد بعض المجموعات من سـكان شمال السـودان التى نزحت الى المنطقـة منذ أمـد بعيد ومنها الجعـليين والركابيـة والعـركيين وغيرهم • وقد اختلطت بالبرتا من سكان المنطقة وتزوجت من نسائهم وقـد عرف العنصر الذى نتج عن هذا التزاوج باسم الوطاويط(١) • وقد اخـذ هذا العنصر عن البرتا لهجتهم وبعض عاداتهم بجانب اللغـة العربية التى يتحدثونها بطلاقـة وتمسكهم ببعض تعاليم الدين الاسلامى •

وتأتى لمنطقـة المجلس أثنـاء فترة الجفاف بعض مجموعات العرب الرحل من قبيلة رفاعـة الهوى وجزء من الانقسنا وعدد مـن الفلاتـه « امبررو » وعادة ترحل هذه المجموعات شمالا عند بدايـة الخـريف •

يعيش معظـم مواطنى المنطقة على الزراعة المطرية مستعملين فى ذلك الطرق التقليدية التى تسود معظم مناطق السافنا على عـرض أفريقيا مـن تنظيف الأرض وزراعتها حتى تفقد خصوبتها ثم الانتقال منها الى مكان آخر وقد تعـاد زراعتها بعد عدة سنوات عندما تكون قد استعادت تلك الخصوبة • والآلات المحليـة التى تستخدم هى « السلوقه » و « الحشاشة » وما الى ذلك • ويزرعـون الذرة والذرة

---

١ ـ كنت فى مقال سابق عن المنطقة قد تعرضت للروايات التى تشرح هذا الاسم « انظر مجلة الحياة ١٩٦٨/٧/١٩ » .

الشامى واللوبيا وقليـــل من السمسم كمايحتفظ بعضهم بقليل من المواشى والاغنام والضأن والبقر والحمير .

توجـــد بالمنطقة بعض الصـــناعات المحلية والتى لاتتعدى أعمال السعف من بروش ومقاطف ، هذا وتصـــدر المنطقـــة خشب القنا الى وسط السودان.(١)

يقع المجلس داخـــل منطقة السافنا الغنية ويتراوح مقـــدار المطر فيه فوق الـ ٧٠٠ مليمتر مكعب فى متوســـطه خـــلال السنة وينزل المطر بين نهاية شهر أبريـــل ونهاية أكتوبر ويجـــرى بالمنطقة العديد من الخيران عند هطول الأمطـــار الا أن خور يابوس الواقـــع فى جنوب منطقـــة المجلس يجرى طول العام وينتهى فى منطقة سدود داخل مديرية أعالى النيل وقبـــل وصوله للنيـــل الأبيض . وكل الجـــزء المتاخم للحدود الأثيوبية يتميز بوجـــود تربة صخـــرية ووجـــود العـــديد من الجبال والتى تجعل الزراعة مهمة عســـيرة فى هذه المنطقة ، أما الجزء الغربى من المجلس فيتميز بوجود الســـهول الطينية الصالحة للزراعـــة .

تاريخ المنطقـــة :

كانت تمثل هذه المنطقة جزءا مهما من السلطنة الزرقاء ولوقت طويل كانت تخضـــع لسلطة الدولة السنارية ويأمـــل المؤرخـــون المهتمون بالتحقيق فى أصـــل الفونج وكشف سر تلك الحقبة الأولى من تاريخ المملكة السنارية حتى يتمكنوا من صياغة تاريخ السودان الحديث على الوجه الأكمل ، يأمل هؤلاء فى أن تأتى الدراسات التى يقومون بها فى هذه المنطقة بنتائـــج جديدة تلقى الضوء على ماحـــدث قبـــل ١٥٠٤ وما تلى ذلك من تطور فى علاقـــة دولة الفونـــج بالاقاليم الممتدة شـــمال تلك البقعة .(٢)

---

١ ـ التقرير السنوى لمجلس ريفى الكرمك الشعبى لعام ١٩٧٢/٧١ يقدر الايراد من الضرائب المفروضة عن القنا المصدر بحوالى عشرين ألف جنيه .

٢ ـ انظـــر J. Spandling: The Funj: a reconsideration, the Journal of African History. Vol. XIII No. L.

وكتاب البروفسر يوسف فضل حسن : مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية .

وكما أسلفت فان لهجرة بعض العناصر من شمال السودان أثر كبير فى التكوين السكانى وقد أثر ذلك بدوره على العادات والتقاليد وأدى الى نشر تعاليم الدين الاسلامى فى المنطقة ، على أيدى « الفقراء » الذين هاجروا لتلك المنطقة بقصد تعليم أبناء المهاجرين من التجار الشماليين • وقد أقام بعض هؤلاء « الفقراء » المساجد لتدريس القرآن فى مناطق « دول » و « خمشة » و « فداسى » وبجانب العناصر التى هاجرت خلال القرن السادس عشر والسابع عشر نجد أن هناك البعض الذى وصل الى المنطقة فى تاريخها الحديث عند بداية الغزو التركى — حين جاء هربا من انتقام جيوش الدفتردار بعد مقتل اسماعيل باشا بيد الملك نمر وقومه من الجعليين ، وعن هؤلاء يسرد لنا الرحالة الايطالى Beltrame قول أحد محدثيه فى بنى شنقول (١)

يقول Beltrame حدثنى « الفكى مسيد » فقال :

« نحن ، سيدى ، نقيم فى هذه الديار منذ أمد قصير نحن أهل شندى وحلفا الذين هربوا من مناطقهم عندما أرسل محمد على جنوده المصريين لينتقموا لمقتل ابنه اسماعيل الذى أحرق حيا فى شندى فعدد كبير منا فى ذلك الوقت لجأ لبنى شنقول والتى كانت المدينة الرئيسية فى أرض الشنقالة والبعض ذهب الى فداسى بينما انتشر الباقون على الجبال المجاورة • ومن الزنوج الذين تراهم الآن ، سيدى ، كان فيهم من يسكن بنى شنقول قبل وصولنا ، والآخرين هم البرتا السود الذين جاءوا ووضعوا أنفسهم تحت سلطتنا لعدم تمكنهم من وجود ما يمكن أن يعيشوا عليه فوق جبالهم الجدباء • والرئيس الكبير لكل هؤلاء الزنوج هو « هنكنوق » الذى ستروه » •

والواضح ان العلاقة بين النازحين من الشمال والسكان الاصليين كانت ترتبط قبل كل شىء بمدى قوة كل من الطرفين فالتجار الذين دخلوا الى المنطقة على ظهور حميرهم يحملون بعض الملح وكان هدفهم جمع قدر وفير من الذهب والبضائع الأخرى التى ترسل شمالا لعاصمة البلاد — سنار — وتدر ربحا وفيرا

---

١ — انظر G. O. Whitehead : Italian travellers in the Berta Country, *SNR* Vol. XVII, Part II, 1934.

عليهم وكذلك شمل نشاط التجار شراء الرقيق أو خطفهم لبيعهم فى وسط البلاد وشمالهـــا •

ولهذا جمعت كل مجموعة من التجارقواها وبسطت نفوذها على مناطق محددة وشكلت فى نهاية القـــرن التاســع عشرما يمكن أن يطلق عليه اســم الممالــك الصغيرة التى لاتخضــع لسلطة الحكومةالسودانية أو الأثيوبية • والحديث قــد يتشعب هنا ويقــود الى تفاصيل عديدة ليست من أهداف هذا المقال وكل الذى أريد أن أقوله هنا ان تجارة الرقيق ، التىمارســها بعض النازحــين من الشــمال وصعدتها جيوش محمــد على الغازية فىهجومها الشرس على السكان العزل من أجل أخذ أكبر عدد من الرجــال ، كانلهذه التجــارة الأثــر الكبير فى تنظيــم مجموعات السكان وترابطها ، لقد أدىالهجوم المستمر الى الحركة الدائمة مــن جانب السكان تفاديا للغــزو كما أدى هذا لعيشهم فى مجموعــات صغيرة حتى لا يلفتوا النظر اليهم وقادهم الى لجوئهمالى الأراضى الوعرة والتى قــد لاتصلح للانتاج الجيد لأى مــن المحاصيل التىيعتمدون عليها فى عيشهم • بجــانب كل هذا فقد أثر عدم الاستقرار على مفاهيمهململكية الأرض اذ اننا لانجد ملكية فردية متوارثة ، فكل الأرض ملك للقرية ويحقللفرد أن يزرع فى أى جزء أراد اذا كان ذلك الجزء غير مستعمل من جانب شخصآخــر فى ذلك الحين • نتجت عن ذلك أيضا الحاجة للتعاون والعمــل الجماعىخاصة وأن بعض المزارع (١) تبعــد عن القرية ووقت الخريف الذى يعتمدون علىامطاره لرى الــزرع قصير كذلك يجب انجاز العمل فى مجموعــات يســهل عليهاالدفاع عن النفس فى بقعة تبعد عن أرض القــرية •

---

١ ـ مزارع الذرة تبعد عن القرى ، فمبانى القريةدائما تكون على مقربة من الخيران حيث يوجد مــاء الشرب طول العام ، عندما تجرى الخيران فى الخريف وبواسطــة « الجمام » فى الصيف وعــلى جوانب هذه الخيران توجد الاشجار الكبيرة التىتتجمع فيها الطيور التى يمكن أن تقضى على المحصول لهذا تبعد مزارع الذرة عنها . بالاضافة الىذلك فان أرض الخيران الطينية تصلح لزراعة محاصيل أخرى سريعة النمو يحتاج لها السكان للاستهلاكقبل حصــــاد الذرة ومنها الذرة الشامى وبعض الخضروات .

نلاحظ هنا أن النفير أو العمل الجماعى كما أسميناه ، قد تأثر أيضا بتاريخ المنطقة وقد مرت ظروف جعلت التعاون أهم أسس الحياة وعاملا هاما فى بقاء المجموعة .

الحياة الاقتصادية فى القرية :

لا يزيد عدد سكان القرية فى أغلب الأحيان عن الخمسمائة شخص تقريبا ، وهذا التجمع الكبير للسكان فى قرية واحدة جاء بعد أستتباب الأمن بعض الشىء فى المنطقة فى نهاية العشرينات من القرن الحالى حيث تست مكافحة تجارة الرقيق واقيمت مراكز المراقبة الحكومية على طرقها القديمة غير أننا حتى الآن نجد أن كثيرا من التجمعات السكنية لايزيد عدد أفرادها عن المائة شخص خاصة وسط مجموعة الأدوك .

تتكون مبانى القرى من القطاطى المصنوعة من القنا والعشب الجاف وبعض الأخشاب الأخرى وكل ما يدخل فى صنع هذه القطاطى هو انتاج محلى . وكل واحدة من هذه القطاطى تكون مسكنا لعائلة تتكون من الأب والأم والأطفال الصغار . وفى حالة زواج الرجل بأكثر من أمرأة واحدة يجب أن يقيم مسكنا خاصا لكل زوجة وقد تكون هذه المساكن مجاورة لبعضها البعض وهذا التقليد ينطبق على كل مجموعات المنطقة أدوكا أم برتا أو غيرهم .

جرت العادة أن يكون عمل الزوجة هو اعداد الطعام وجلب الماء من الخيران واعداد المريسة للاحتفالات الدينية والخاصة أو فى حالة الاعداد لقيام النفير ، كذلك تقوم النساء بجمع الثمار البرية فى بداية الخريف وهذا العمل قد يشترك فيه الرجال أيضا . هذا وتساهم المرأة فى الزراعة وقد تكون لها مزرعتها الخاصة والتى يكون لها مطلق التصرف فى منتوجاتها وتشترك البنت قبل زواجها مع أمها فى كل ما تقوم به من واجبات . أما عمل الرجل فهو بناء المسكن والقيام بصيانته من حين لآخر كما يقوم مع رفاقه من سكان القرية بالصيد الجماعى وباعداد المزارع للموسم الزراعى الجديد كما أنه يجب أن يزرع قطعة أرض يمكن لمنتوجها أن يعيش أسرته حتى موسم الحصاد القادم هذا ويقوم الرجل أيضا بالاشراف على المواشى ان كان للأسرة منها شىء . ويساعد الابن

والده فى مثل هذه الأعمال الا وسط مجموعة الأدوك دون سائر المجموعات الأخرى بالمنطقة حيث يذهب الابن بعد سن العاشرة ليعيش مع أخواله ـ أهل أمه ـ وهذا يرجع أساسا لكون هذه المجموعة تتبع القرابة من جهة الأم ويمارس أهل الأم حقوقا عديدة على أبناء بنتهم أهمها انضمام الطفل لهم (١) • والعائلة تعمل كوحدة اقتصادية متكاملة يتخصص أفرادها فى بعض الأعمال المكملة لما يقوم به الجزء الآخر غير أننا نجد أن للمرأة حرية التصرف فى منتوجها الزراعى دون استشارة الرجل ولكن فى حالة الحاجة الشديدة نجد أن المرأة تساهم بهذا الجزء لحل أى ضائقة استهلاكية قد تحل بالعائلة • والقرية كتجمع سكانى أيضا تقوم على التعاون التام فى النواحى الاقتصادية حيث يتبادل الأفراد السلع التى ينتجونها ويساعدون بعضهم البعض فى ساعة الشدة •

ويربط القرية أكثر من ذلك الشعور بأن بقاء مثل هذه المجموعات يكمن فى وحدتها وتعاونها وتغذى هذا الشعور ذكرى الماضى القريب وضرورة الاحتماء فى شكل تجمعات قد تكون قادرة على صد أى عدوان خارجى فوق هذا فان القرية كمجموعة يحق لها ملكية الأرض الزراعية التى تقع بالقرب من مساكنها وفى تعاونها ووحدتها يكمن سر قوتها فى الدفاع عن أراضيها الصالحة للزراعة من تغول القوى الأخرى أو المجموعات الرعوية •

وينظر سكان القرى فى منطقة الكرمك للأرض على أساس أنها تنقسم من ناحية صلاحيتها الزراعية الى قسمين ، القسم الأول هو الأراضى الطينية الواقعة على الخيران وفيه يزرعون الذرة الشامى واللوبيا والبامية والقرع وبعض المحاصيل الأخرى ، ومنتوج هذه الأرض سريع ويمكن أن يحصد قبل نهاية الخريف ويمكن استهلاكه فى الفترة التى ينتظرون نضوج المحاصيل الأخرى التى تزرع على القسم الآخر من الأرض •

والقسم الثانى هو الأرض البعيدة عن الخيران وهى قد تكون صخرية بعض الشىء ولا تخزن الماء لمدة طويلة وتزرع فيها الذرة والسمسم ومنتوجها يأتى بعد نهاية موسم الأمطار • هذا وتتميز هذه الأرض بقلة الأشجار الكبيرة التى

١ ـ انظر المقالات العديدة التى كتبتها W. R. James فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات منذ عام ١٩٦٨ وحتى الآن .

يمكن أن تأوى اليها الطيور وتهجم منهاعلى المحصول قبل حصاده ، كما أننا نلاحظ أن كل مايزرع على أرض الخيران يصعب على الطيور الصغيرة التهامه بسهولة .

ويمكن أن نجد أن بعض سكان هذه القرى ينظفون الأرض التى حول مساكنهم ويقومون بزراعتها ولكن هذه الزراعة تكون عرضة للمواشى التى يحتفظ بها سكان القرية ولا سبيل لحمايتها الا باقامة « زريبة » حولها .

النفير :

نجد أن أكثر أيام السنة ازدحاما بالعمل فى هذه المنطقة هى الفترة ما بين بداية أبريل ونهاية نوفمبر ، ففى بداية أبريل يكون موسم الأمطار على الأبواب ولابد من الاستعداد له لهذا يبدأ الرجل فى تجميع الحطب وجلب القنا وتحضير العشب الذى يتم عادة جمعه فى شهر ديسمبر ، قبل أن تقضى عليه مواشى الرحل ، كل هذا من أجل بناء بيت جديد لعائلته أو لصيانة البيوت القائمة كذلك عليه فى نفس الفترة أن ينظف الأراضى التى يود أن يقوم بزراعتها ، وتأتى بعد ذلك عملية الزراعة والحصاد . والزرع عادة يتطلب العمل اليومى من نظافة ومراقبة من الآفات .

تزرع الأسرة عادة مايعادل خمسة أو ستة أفدنة من الأرض وبما أنهم يستعملون الآلات البدائية الآنفة الذكر فى مثل هذه الأعمال العديدة ولفترة قصيرة من السنة حتمتها الظروف الطبيعية للمنطقة .. يصبح أداء كل العمل شبه مستحيل على الرجل العادى وأفراد أسرته منفردين . لهذا كان لابد من ايجاد نظام يوفر الوسيلة الكفيلة باستغلال الموارد الطبيعية فى المنطقة لمصلحة المجموعات التى تعيش عليها .. ومن هنا كانت فكرة تنظيم النفير أو العمل الجماعى فى القرى أو بين مجموعة من القرى تقع على مقربة من بعضها البعض .

واذا نظرنا الى القرية نجد أن عدد سكانها قد يتجاوز الخمسمائة شخص فى بعض الأحيان الا أن الاشتراك فى النفير مقصور على الرجال والأبناء الكبار والنساء المتزوجات أما البنات غير المتزوجات والأطفال فلا يشتركون فيه . وبما أن عدد السكان فى بعض القرى كبير فان القرية الواحدة قد يكون بها أكثر من

نفير فى وقت واحد وعلى هـذا الأساس قد يقسم أفراد الأسرة أنفسهم على النفاير المختلفة حتى يتمكنوا من الاشتراك فيها جميعا أو فى أغلبها وهذا شيء ضرورى فمن أصل نظم قيام النفير هو الاشتراك التطوعى للافراد ولكن الذى يرفض أن يحضر نفير الغير يقابل بنفس المعاملة عندما يعد نفيرا لنفسه . وأكثر من هذا فان مثل هذا الشخص ينتقد عادة فى كل المناسبات ويكسب سمعة سيئة لكسله ويكون لمثل هذه السمعة الأثر الكبير فى معاملاته الأخرى مع أهل قريته والقرى المجاورة .

قلنا ان النساء يشتركن فى النفير ولكن يجب أن نوضح أن دورهن يقف عند اعداد الطعام والشراب ، كان ذلك عصيدة أو مريسة مع الشاى والقهوة ، وفى احضار الماء والمريسة للرجال أثناء عملهم فى المزرعة ، والتى قد تبعد عن مصدر المياه مسافة ثلاثة أو أربعة أميال . أما فى حالة بناء أو صيانة المساكن فان العمل يستمر من الرجال فى الصباح الباكر وفى فترات الراحة تحمل النساء المريسة أو الماء لهم فى مكان عملهم وبعد الفراغ من العمل الذى يعنى بناء بيت جديد أو صيانة آخر فى ظرف ساعات معدودة يجلس الرجال تحت ظله وتحمل لهم النساء الأكل أو الشراب هناك .

وبالنسبة للاعداد للنفير فان الرجل أو المرأة اذا أراد الواحد منهما اقامة نفير لزراعته(١) فان عليه تحضير الذرة اللازم لاعداد العصيدة أو المريسة (ربما يكون ذلك بشرائه من التجار اذا لم يكن لديه مخزون من حصاد العام السابق) . وتحضير أغلب معدات العمل باستلافها من الجيران أو أن يطلب منهم أن يحضرونها معهم عند قدومهم للمشاركة فى النفير . ويسلم الرجل الذرة لزوجته أو زوجاته وفى حالة الصبى لأمه أو لأخته وتقوم المرأة بدعوة جاراتها لمساعدتها فى الطحن لاعداد العصيدة أو المريسة وينتهى هذا العمل فى أغلب الأحيان فى ظرف ثلاثة أيام . وفى أثناء عملية الاعداد هذه يقوم صاحب النفير بابلاغ النبأ وتحديد اليوم لكل

---

١ ـ الاعداد والدعوة للنفير لبناء أو صيانة البيت من مهام الرجل ويقع كل تنظيمه عليه .

سكان القرية حوله وقد يعلن هذا القرار والتاريخ أثناء قيام الناس بالعمل فى نفير آخر اذ أن فرصة التجمع تتيح للنبأ أن يصل الى أكبر عدد ممكن .

وفى اليوم المحدد يجتمع الجيران وبقية الراغبين فى المشاركة منذ الفجر أمام دار صاحب النفير الذى يقودهم بدوره الى المكان الذى يريد نظافته وحشه أو حصاده على حسب موقع الزمن من الموسم .. تلحق بهم بعد ذلك النساء وهن يحملن الماء أو المريسة التى تشرب أثناء العمل وفى مثل هذا العمل نجد أن روح التعاون عالية ويسود نوع من الفرح والبهجة تعبر عنه الأغانى التى يرددها المشتركون فى جماعية أثناء عملهم . وبعد أداء عملهم يعودون لمنزل صاحب النفير حيث يجدون المريسة أو العصيدة والشاى أو القهوة فى انتظارهم فيتناولونها وفى بعض الأحيان يشترك المجتمعون فى القيام ببعض الألعاب أو الرقص والغناء بعد فراغهم من الأكل والشرب وقد يستمر ذلك حتى ساعة متأخرة من الليل حيث يأوون الى منازلهم للخلود للراحة والاستعداد ليوم جديد ونفير آخر .

أما اذا كان النفير لزراعة أرض امرأة فعليها أن تحضر الذرة من مخزونها أو أن تقوم بشرائها ، وأن تقوم مع جاراتها باعداد المريسة أو العصيدة ثم تجعل زوجها أو ابنها يدعو لهذا النفير باسمها ويتولى قيادته ويكون عليها هى تقديم الأكل والشراب .

وفى منطقة الكرمك هناك النفير الذى يقيمه الرجل صاحب المكانة الدينية (الكجور عند الأدوك مثلا) ويدعى لمثل هذا النفير أهل القرى المجاورة ، ويشترك أغلب نساء القرية فى اعداد الأكل والشرب له وقد تحضر بعض نساء القرى المجاورة القليل من العصيدة أو المريسة والشاى والسكر معهن فى الصباح . ويقوم صاحب النفير بذبح شاة مع عدد من الدجاج تقدم للحاضرين بعد انتهاء العمل وقد يستعمل القرن فى الدعوة لهذا النوع من النفير . والقرن آلة موسيقية تصنع من قرن الابقار ويسمع صوتها من مسافات بعيدة ومثل هذا النفير شبيه بنفير الفور الذى يسمونه « بالبمبانى » والذى يقيمه العمدة أو يقيمه الزوج لزراعة أرض أم زوجته وفيه تنحر الذبائح وتدعى القرى المجاورة .

النفير والتحول الاجتماعى :

تشهد المنطقة تحولا اجتماعيا هائلا نتيجة لاتصالها ببقية القطر فى السنوات الأخيرة وهجرة بعض التجار والزراع من شمال السودان اليها ، خاصة المزارعين الذين زحفوا جنوبا بعد أن ضمت القطع الأرضية التى كانوا يزرعونها للمشاريع الآلية ، لكن هذه الهجرة لم تؤثر على علاقة الانسان بالأرض على مدى كبير حتى الآن • والظاهرة الوحيدة التى قد تشكل خطرا على نوع ملكية الأرض هى زراعة شجر الفواكه التى انتشرت أخيرا ، فكما أسلفت فان القرى تعتبر الأرض التى حولها ملكا جماعيا لأهلها يمكنهم أن يزرعونها متى ما كانت خالية ، وتحول الفرد من قطعة أرض الى أخرى جديدة على حسب مقدرته على نظافة الأرض وامكانه اقامة النفير لذلك •• والأرض التى تخلو بتحول صاحبها الى أخرى يحق لآخر أن يزرع فيها بعد حين وقد يستأذن صاحبها السابق فى بعض الأحيان اذا لم تتعد على رحيله مدة طويلة ولكن زراعة شجر البرتقال والمانجو والليمون على مثل هذه الأرض ينقلها تلقائيا الى ملكية خاصة تظل عند صاحبها حتى اذا ارتحل لغيرها • وبما أن سكان المنطقة غير شغوفين الى حد كبير بزراعة الفواكه ولا يجدون سوقا رائجا لها فى منطقتهم نجد أن هذه الزراعة يقوم بها بعض التجار الوافدين حديثا الى المنطقة • ويبدأ هؤلاء بزرع شجرة أو شجرتين على أرض يستغلونها من أحد سكان القرية التى يسكنونها وبعد مرور الزمن يكبر عدد الشجر ويجد صاحب الأرض الأصلى نفسه مضطرا لنظافة أرض جديدة وترك تلك القطعة للتاجر ويصدر التجار محصول هذه الاشجار شمالا •

وبما أن التجار لا يشتركون فى النفير فلا يمكنهم أن يقيموا نفيرا بأنفسهم لنظافة وزراعة أرضهم اذ أن عدم تعاونهم مع سكان القرية يحتم على هؤلاء عدم الاشتراك معهم فى عمل جماعى • يضاف الى هذا ان نوع الأشجار التى يزرعونها تحتاج لرعاية دائمة طوال العام بما يتطلب ذلك توفر الماء واليد الخبيرة العاملة اذا ما أمكن ذلك • ولحل مشكلة الماء نجد أن التجار فى هذه المنطقة قد بدأوا فى استعمال الطلمبات الصغيرة كما أنهم أخذوا يستأجرون الايدى العاملة لحل ضائقتهم وقد امتد استعمالهم للايدى العاملة من أهل القرى نفسها (خاصة الذين يحوجهم ضيق العيش على كسب رزق اضافى قبل موسم الحصاد) لزراعة الذرة والمحاصيل الأخرى بجانب زراعة أراضيهم الخاصة •

ومن شأن مثل هذا العمل أن يضعف مكانة النفير فى القرية وأن يجعل بعض أفرادها يهربون من التزامهم نحو المجموعة التى يعيشون معها جريا وراء الأجر اليومى الذى قد يحل بعض مشاكلهم الوقتية الا أنه على المدى البعيد يساهم فى أضعاف وحدة القرية ويحول أهلها من مستفيدين من العمل الجماعى الى عمال زراعيين لعدد قليل من القادرين على دفع الأجر اليومى •

بجانب هذا نجد أن سبل المواصلات الحديثة ــ العربات ــ قد يسرت طريق الهجرة للعديد من الشباب من هذه القرى خاصة هؤلاء الذين سمعوا بقرض أوفر للكسب على النيل الأزرق عند قيام خزان الدمازين وانتشار مشاريع الزراعة الآلية وقد أثرت هذه الهجرة على العدد الذى يكون موجودا عند بداية تنظيم النفير فى القرى وقللت من القدرات الجماعية التى كانت موجودة قبل هذه الهجرة ويشكو أهل المنطقة أيضا من عزلة ابنائهم الذين يذهبون للمدارس وتنمو فيهم روح الاستخفاف بمثل هذا العمل الجماعى والعديد من التقاليد الأخرى التى يرى فيها الكبار سر وجودهم فى فترة كانوا يعانون فيها من ضغط مركز من الخارج •

النفير فى جنوب الفونج وعند الفور :

نجد تشابها ملحوظا بين النفير عند أهل منطقة الكرمك وبين النفير عند الفور وقد حاولت خلال بعض النقاط العابرة أن أشير لأوجه الشبه هذه ولكن قبل البداية فى سرد متكامل لأوجه الشبه والخلاف فى الحالتين تجب الاشارة الى نقطة غاية فى الأهمية ألا وهى نظرة المجموعتين لتكوين الوحدة الاقتصادية ، فبينما نجد أن الأسرة المكونة من الأب والأم والأطفال تعتبر هى الوحدة الأساسية فى تكوين المجموعة فى منطقة الكرمك بالرغم من استقلال واحد أو أكثر من أفرادها فى فترة من فترات حياتهم كما يحدث فى حالة الزوجة التى تزرع أرضا خاصة والابن الذى يقوم بنفس الشىء نجد أن الفرد هو الوحدة الاقتصادية عند الفور(١) •

---

١ ــ فيما يختص بالمعلومات عن الفور ومن أجل توسع أكثر حول حياتهم الاجتماعية ونظمهم الاقتصادية انظر :

Fredrick Barth :

1. Human Resources in Dar Fur. Report to FAO.
2. Economic Spheres in Dar Fur, in *Themes in Economic Anthropology*, Re. Firth (Ed). 1967
3. On the study of social change, *American Anthropologist*. Vol. 69, 1967.

واذا نظرنا لأوجه الشبه بين النفير عند أهل منطقة الكرمك وعند الفور، نجد أن أهم نقاط الالتقاء بين الاثنين هى أن النفير هو الوسيلة الوحيدة لجمع عدد كبير من الأيدى العاملة فى فترة يتطلب فيها موسم الأمطار انجاز أعمال عديدة وفى وقت قصير الشىء الذى لا يمكن أن يتيسر للشخص منفرداً أو للأسرة المكونة من الأب والأم والأطفال كوحدة صغيرة . كما أن ايجاد عمل بالاجر فى مثل هذه القرى يعتبر ضربا من المستحيل اذ أن كل فرد يود أن يخصص وقته لايجاد مايعول أسرته لمدة عام كامل ولا يمكن للنقود التى يكسبها من عمل متقطع أن تأمن ذلك . يضاف الى هذا ان الغالبية العظمى من القرويين ليس لديها من المال ما يمكنها استخدامه لشراء عمل الآخرين ، أما اذا قلنا أنه قد يجوز لنا أن نسمى المريسة أو « العصيدة » و « البليلة » اللائى يستخدمن كحافز للاشتراك فى النفير ، أجرا فاننا نجد أن مثل هذا القول يجافى الواقع المعاش فالشىء الذى يقدم كحافز للنفير يستهلك فى وقته وبواسطة الفرد المشترك فى العمل ولا يمكن أن يحول لمصلحة فرد آخر أو يقيم بمال أو يدخر ، كما اننا نلاحظ أن بيع المريسة أو « العصيدة » و « البليلة » فى كل من المنطقتين يتجافى والقيم الاجتماعية المتوارثة .

كما يجب أن نشير هنا الى أن العمل بالنفير فى كل من المنطقتين لاينطبق على المحاصيل النقدية التى تزرع أساسا من أجل بيعها خاصة عندما يزرعها الفرد بصورة أكبر مما يمكن استهلاكه محليا ، فمثلا لانجد أن النفير يستخدم فى زراعة التبغ أو الفواكه التى بدأت تنتشر فى هاتين المنطقتين كمحاصيل نقدية .

ووجه آخر للشبه أيضا يظهر فى الأثر الذى خلفه التطور الاجتماعى الذى ينمو فى سرعة واضطراد ويشمل كل جوانب الحياة فى المنطقتين نسبة للانفتاح المستمر على بقية انحاء القطر والهجرة المستمرة لعدد كبير من السكان ، وكذلك دخول العديد من الوافدين من اجزاء القطر الأخرى والذين لايتثنى لهم تقدير الأثر الاجتماعى لمثل هذه الأعمال الجماعية . فالهجرة المستمرة لسكان المنطقة أدت لتقليل الأيدى التى يمكن أن تشترك بصورة فعالة فى النفير خاصة وان غالبية المهاجرين من الشباب الذى يعتبر عنصرا مهما فى العمل الزراعى ، اما الوافدون فهم فى الغالب الأعم من التجار الذين جاؤا لاستثمار أموالهم فى المنطقة ولهذا كانوا يلجأون

لاستخدام العمل المأجور لانتاج محاصيل نقدية يمكن تصديرها لبقية أنحاء القطر ومنها على سبيل المثال التبغ والطماطم والبصل كما أن مشاغلهم العديدة فى جوانب أخرى من الحياة الاقتصادية فى المنطقة تمنعهم من الاشتراك فى النفير ولهذا لا يمكنهم الدعوة لنفير كما أوضحنا فى البداية عند ذكرنا لمقومات النفير كعمل جماعى .

كذلك أدى وصول هؤلاء الوافدين الى تغيير سريع فى أسس ملكية الأرض فقد كانت أراضى المنطقتين تقع ضمن الأراضى التى تمتلك جماعيا بواسطة القرية أو المجموعة ككل ولكن استخدام بعض الأراضى لزراعة أشجار الفواكه التى بدأها الوافدون وسايرهم فيها بعض السكان أدى الى تحول الأرض التى تقوم عليها الأشجار الى الملكية الفردية بدل الجماعية .

أما أوجه الخلاف فى المنطقتين فتنحصر فى تنظيم الجهاز الاقتصادى لكل مجموعة وفى وجود أوجه استثمار عديدة عند الفور بينما تتضاءل مثل هذه الامكانية فى منطقة الكرمك . وهذا يأتى أساسا بسبب أن البيئة الطبيعية تختلف بعض الشىء فى كل من المنطقتين حيث أننا نجد أن منطقة دارفور وخاصة جنوبها الغربى أكثر صلاحية للزراعة من منطقة الكرمك بالاضافة الى ذلك نجد أن بعض الأسر عند الفور تمتلك قدراً وافراً من الماشية لهذا تلجأ لتقسم وقتها بين الزراعة والرعى كما أن الماشية فى المنطقة تكون مجالا جديدا للادخار للفائض من المنتوج الزراعى الذى يمكن بيعه . ونلاحظ أن جزءا من أهل القرى يتحول الى قطاع رعوى بعد أن ينجح فى ادخار المال الكافى لشراء الماشية بعد عمل مضنى فى الزراعة(١) . بينما نجد أن انتاج سكان منطقة الكرمك لا يتعدى استهلاكهم السنوى وفى بعض الأحيان يقل عنه مما يقود لبداية مجاعات فى المنطقة كانت آخرها فى عام ١٩٧٠ .

كذلك نجد تركيزاً كبيراً عند الفور، خاصة فى السنوات الأخيرة بعد الانفتاح على بقية أنحاء القطر ، على المحاصيل النقدية حتى أن بعض الأفراد بدأ يزرع

---

١ ـ انظر مقال :
Gunnar Haaland :
Economic Determinants in Ethric processes, in *Ethnic Groups and Boundaries*, F. Barth (ed) 1969.

قطعة أرض اضافية لمحصول كالبصل والطماطم دون أن يلجأ للنفير فيها وقد ساعدت على ذلك خصوبة الأرض وسهولة زراعتها كما ساعد على انتشار هذا الروح ما لاحظه الأهالى من ثراء سريع لبعض الوافدين الذين قاموا بزراعة المحاصيل النقدية فى المنطقة بالاضافة الى أن وجود مثل هؤلاء الوافدين الذين لديهم قدر وافر من رأس المال يمكنهم من استخدام وسائلهم الخاصة للمواصلات ، شجع السكان على السير فى هذا الطريق اذ أن بامكانهم ، وبدفع الأجر المناسب ، تصدير ما يمكنهم انتاجه من محاصيل نقدية لباقى انحاء القطر • ومثل هذا الوضع لا يتوفر فى منطقة الكرمك اذ أن تجارها لم يتجهوا للزراعة الا حديثا ، وكانوا من قبل يركزون على البن الذى يستوردونه من أثيوبيا وعلى الأخشاب (كالقنا مثلا) وعلى شراء واستخراج الذهب من الجبال المحيطة بهم •

وبعد هذا العرض السريع لأوجه الشبه والخلاف بين النفير كعمل جماعى تمارسه كل من مجموعة الفور وأهل منطقة الكرمك نخلص الى أن الفرد العادى فى هاتين المنطقتين يعتمد اعتماد أساسيا على هذا النظام كمصدر لتوظيف طاقات المجموعة فى خدمة الفرد وتأمين حياته اذ أن فقده يعنى عدم التمكن من استغلال ظرف الأمطار بصورة تمكن من انتاج يكفى لحاجة أى ساكن لمدى عام كامل • أما مسائل التحول الاجتماعى فى المنطقتين فيمكن أن تعالج بصورة توجيهية تحفظ للنفير كعمل جماعى مكانته وسط السكان وتطويره أن أمكن ذلك حتى يشمل المحاصيل النقدية الشىء الذى يجعل القطر عامة ، وبصورة مباشرة أو غير مباشرة ، يجنى ثمار نظام اقتصادى اجتماعى هام • وفى هذا المجال نجد أن تجربة التنمية التى يقودها عدد رائد من العاملين فى هيئة توفير المياه والتنمية الريفية فى منطقة ديم منصور جنوب الكرمك تستحق الدراسة والمراقبة اذ انها اعتمدت على القدر القليل من رأس المال والآلات فى اعداد مشروع لثلاثة من قرى المنطقة مع اعتمادها الكامل على العمل الجماعى الذى سيقوم به السكان على نمط تنظيمهم التقليدى للنفير • وقد وسعت الرقعة التى يزرعها الفرد أو الأسرة كلها فبدلا من أن تقوم الأسرة بزراعة ثلاثة أفدنة على الأكثر فان نصيبها فى

المشروع سوف يكون عشرة أفدنة(١)•وبجانب مساهمة الآلات فى النظافة فان على أفراد القرية أن يتقسموا على مجموعات قد تتفاوت بين عشرة أو خمسة عشرة أسرة وتعمل كل من هذه المجموعات فى مزرعة أحد الأسرة الأعضاء فيها وبعد انجاز العمل المطلوب ترتحل الى أخرى وهكذا مستقلين بجانب هذا التنظيم الذى يشرف عليه العاملون فى الهيئة كل الحوافز التى كانت تقدم فى النفير • وكما اسلفت فان هذا المشروع يجرب لأول مرة هذا العام ويمكن ان تعمم مثل هذه التجربة عند نجاحها على معظم المناطق التى تستخدم العمل الجماعى فى استغلال مواردها الطبيعية •

---

١ ــ تقرير عن مشروع ديم منصور : اعداد قسم الدراسات الاقتصادية والاجتماعية ، قسم التنمية الريفية بهيئة توفير المياه والتنمية الريفية ١٩٧٢ .